بلاغة المجاز والإعجاز ضِمن النظرية البلاغية العربية

The rhetoric of metaphor and miracle within Arabic rhetorical theory

فضلي لعجال، جامعة عمار ثليجي، الأغواط – الجزائر

l.fadli@lagh-univ.dz .

تاريخ الارسال:11-03-2024 تاريخ القبول:24-03-2024 تاريخ النشر:26-09-2024

ملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى بيان جانبٍ من التطور الإبستيمولوجي للبلاغة العربية، من خلال الدراسات القرآنية التي كانت على يد القراء، حيث انطلقت هذه الدراسات من الدفاع عن القرآن وتبرير مجازه حتى وصلت إلى التحدي به وإبراز إعجازه، وهي مباحث قرآنية ذات منهج كلامي أثمرت تفصيلات علمية، وتدقيقات منهجية، وتنظيرات بلاغية صريحة، بلغت سَبْق بعض الإعجازيين إلى فكرة النظم، وبلوغ الدراسة الموضوعية العميقة، التي تتناول الأسلوب وتهتم باللفظ والجملة والصياغة وتقسيمات أبواب البلاغة.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز، المجاز، البلاغة.

Abstract

The aim of the research is to explain the development of Arabic rhetoric. On the part of Qur'anic studies, these studies began by defending the Qur'an and justifying metaphors in it, then reached the challenge of the Qur'an and its miracles.

These studies had a philosophical approach, produced explicit laws and theories in Arabic rhetoric, and reached the study of style, words, sentences, wording, and divisions. types of rhetoric.

Keywords:**Miracle, metaphor, eloquence**

المؤلف المرسل: **فضلي لعجال**

مقدمة:

لم تكن البلاغة العربية متلونة ومتغيرة مع الوقت بسبب مراحل تطورها فقط، بل كان ذلك أيضا لكونها متعددة الروافد التي تغذيها بالمادة الخاصة، وترسم لها الاتجاه المختلف، وتختار لها الأسئلة الذي تنطلق منها وتتأسس عليها، ومن هذه الروافد نجد رافد الدراسات القرآنية مع القُرّاء الأوائل، ومباحثهم في تنزيه القرآن والتحدي به، ورافد النقود التطبيقية للشعر مع أصحاب الموازنات وغيرهم ممن اهتموا بمسائل البديع، ورافد التنظير للبيان العربي مع الجاحظ، الذي بحث في الخطابة والتواصل والفهم والإفهام وغير ذلك من الروافد.

ولقد كانت المباحث القرآنية ذات اهتمام كبير عند العلماء، ولها امتداد طويل ومساق متحول، حتى نتج عنها بلاغة ترتكز على فكرتين متعاقبتين هما المجاز والإعجاز، فما طبيعة هذه البلاغة وكيف ساهمت فكرتا المجاز والإعجاز في بناء نسق بلاغي خاص، و كيف شاركت في التنظير البلاغي العربي بأسئلة جوهرية وتفصيلات علمية وتدقيقات منهجية؟

وعلى ما سبق ستكون هذه الورقة البحثية هادفة إلى بيان جانبٍ من التطور الإبستيمولوجي في البلاغة العربية من خلال أحد روافدها الذي هو بلاغة المجاز والإعجاز.

1- الخلفيات والبواعث:

كان اللغويون من أوائل من ناقشوا المسائل البلاغية لكن نشاطهم لم يلبث أن توقف، في حين أن المتكلمين بقي لهم نشاط في هذا المجال، وظل مُؤتيًا ثماره مع كل عَلم منهم، وذلك لأنهم درسوا مباحث واسعة في إعجاز القرآن من حيث بيانه وبلاغته. وكان المتكلمون ذوي فضل كبير في توضيح الإعجاز بما لهم من دقة تفكير وتعمق قديم في هذه المباحث. (ضيف، 1995، الصفحات 102-103)

في القرن الثالث الهجري طرح المشككون في كلام الله أسئلة لا تجيب عنها المعالجة اللغوية، وازداد إحساس المدافعين عن القرآن بالحاجة إلى علم الكلام والحجج العقلية، ثم مع الوقت أدى علم الكلام إلى البحث في الخصوصية البلاغية لكلام الله "وصار الكشف عن الوجوه

القرآنية يَؤول في كثير من الأحيان إلى تفسير بياني لبعض آياته" (السيّد، دت، صفحة 40) فساهم هذا العلم في تطور السؤال البلاغي، وهو علم مؤسّس على إثبات انسجام القرآن وتفوقه على النصوص البشرية، وقد كان اشتغال هذا العلم على مستويين هما:

- تنزيه القرآن عن الخطأ في مواجهة المتشككين في الوحي.
- إثبات مزية الإعجاز في القرآن لتثبيت المؤمنين به.

وقد كان لهذين المبحثين أثر في توجيه البلاغة العربية من بعض الجوانب. (العمري، 1999، الصفحات 139-141) ثمّ اجتهد الإعجازيون في رد هذه الطعون بأمرين هما:

- بيان انسجام النص القرآني، وقد نتج عن هذا المبحث بيان كيفية تحول اجتهادات المجازيين إلى أسئلة كلامية.
- إظهار حكمةِ ما يبدو من اختلاف أو مفارقات في النص القرآني، وفي هذا الإطار تطور مبحث المجاز. (العمري، 1999، صفحة 143)

ألف ابن قتيبة كتاب "تأويل مشكل القرآن" ردا على مطاعن المشككين في القرآن، وتكلم فيه عن المجاز كإطار عام للبلاغة في عصره (مداح، 2011) ص (65)، وكانت هذه المطاعن تنقسم إلى أربعة أنواع هي:

- نوع من جهة اختلاف القراءات.
- نوع من جهة ما ادُّعيَ على القرآن من لحن.
- نوع من جهة ما ادُّعيَ على القرآن من تناقض.
- نوع من جهة ما ادُّعيَ على المتشابه من غموض وإشكال. (العمري، 1999، صفحة 144)

ويمكن تصنيف القضايا التي أثارها ابن قتيبة إلى ثلاث:

- قضايا متعلقة بضبط النص وانسجامه من حيث اختلاف القراءات والإعراب.
- قضية انسجام النص، أي ما ادُّعيَ عليه من التناقض والاختلاف.

ISSN: 2830-8034 EISSN: 2830-9510

- قضية المتشابه الذي تفرعت عنه فصول تتعلق بالتركيب والنظم بصفة عامة مثل المجاز والاستعارة والحذف والتكرار.

ومن الواضح أن القضية الأولى لغوية صرف، والقضية الثانية خطابية نصية دون نقاش بلاغي عميق. (العمري، 1999، صفحة 144)،أما القضية الثالثة فهي قضية الإشكال والغموض في العبارة بسبب تصرف دلاليّ أو نحوي، لذلك انطلق ابن قتيبة في استكشاف آليات التراكيب القرآنية وتفسيرها لغويا، وهنا تجلى جهده البلاغيّ، حيث حاول بلورة الأوجه المجازية الواردة عند اللغويين تحت مفاهيم ومقولات عامة، وهذه القضية هي التي استحوذت على أغلب الكتاب وهي ما يُعتبر مساهمة في تشييد صرح البلاغة. (العمري، 1999، صفحة 146).

يقول محمد العمري "إن هذا العرض العام للأسئلة والأجوبة التي شغلت ابن قتيبة ووجّهته، يقدم دليلا آخر جليا على انبثاق السؤال البلاغي عن هموم غير بلاغية قادتها طبيعة الموضوع (التنزيه وإثبات المزية) إلى الخوض في القضايا البلاغية". (العمري، 1999، صفحة 147) .

وقد حدد ابن قتيبة هدفه من أول الكتاب بقوله: "وقد اعترض كتابَ الله بالطّعن ملحدون ولَغَو فيه وهجروا، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، بأَفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظرٍ مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، قد قضوا عليه بالتناقض والاستحالة في اللغة وفساد النّظم والاختلاف، وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغِمْرَ، والحدث الغِرَّ، واعترضت بالشبهة في القلوب، وقَدَحَتْ بالشكوك في الصدور ... فأحببت أن أنصح عن كتاب الله". (قتيبة، 1983، الصفحات 22-23)

وقد تخلى ابن قتيبة عن بعض القضايا النحوية في هذه المطاعن، وكان هذا التّقليص اللّغوي الصّرف إجراءً مهما لصالح الأسئلة البلاغية الجُمليّة والنّصيّة. ووصل ابن قتيبة إلى مستوى متقدم من التجريد حينما فتح أبوابا خاصة بمجموعات من الصور الأساسية وهذه

ISSN: 2830-8034 EISSN: 2830-9510

الأبواب هي: باب القول بالمجاز - باب الاستعارة - باب المقلوب - باب الحذف والاختصار - باب تكرار الكلام والزيادة فيه - باب الكناية والتعريض - باب مخالفة ظاهر اللّفظِ معناه.

ومن المناسب هنا ملاحظة التّدرج المتصاعد للوعي المنهاجي بالظاهرة البلاغية، إذ تم الانتقال من مجرد ملاحظة الإشكال عند أبي عبيدة والفراء، إلى ملاحظة الإشكال وإعطائه اسما نَسقِيًّا (المجاز) وأسماء تفصيلية. ولحق ذلك عملية استقرائية عفوية بتوسيع النقاش حول الآية بالبيت الشعري، وهذه خطوة ثانية بعد الملاحظة في ضوء المعيار، ثم تتلو ذلك عملية المتناظرات بعضها ببعض. وهذا يستدعي مباشرة تسمية الصفة المشتركة المنتزعة من مجمع الأمثلة، أي وضع بداية العلم وأساسه. (العمري، 1999، الصفحات 149-150)

حينما ننظر بصفة إجمالية في ما أتى به ابن قتيبة من ألوان بلاغية فسنجد أن الفراء (ت208ه) وأبو عبيدة (ت201ه) والجاحظ (ت255ه) قد سبقوه في ذكرها، وأن ابن قتيبة جمع ونقل مواد كتابه من كتب سابقيه ومعاصريه، وأنه لم يضف عليها شيء سوى التنظيم والتبويب. (عبد القادر، 1998، صفحة 180) لكنّ هذا التنظيم جعله صاحب طرح منهجي له دور خطير، خاصة في القرن الثالث الهجري والخلافة العباسية في أوج ازدهارها، واختلاط العرب بالعجم وتوسّع المجال الفكري، والبلاغة مبعثرة لم تُسلك في عقد منتظم، لذلك نصب ابن قتيبة نفسه لهذا العمل التنظيمي المنهجي الجليل حينما كانت البلاغة في أمس الحاجة إلى هذا الجهد. (مداح، 2011)ص(64) ثم إن ابن قتيبة لم يسمّها بلاغة بل جعل كلامه في إطار القول الجمالي والروح النقدية العالية، ومعايير الجمال باسم المجاز (مداح، 2011، صفحة 66).

2- من المجاز التنزيهي إلى المجاز البلاغي:

بيّن ابن قتيبة أن المجازات هي طرق ممكنة في القول، وردّ بذلك على الطاعنين في القرآن، ثم فتح بابا للمجاز إلى جانب صور بلاغية أخرى، وتحدث عن المجاز بمعناه الوسطي بين الفهم الظاهري والتّأويل المُغرِق، فيقبل بعض الاجتهاد في التخريج البلاغي من جهة، مثلما كان "العرب يقولون للمطر سماء لأنه من السماء ينزل، قال الشاعر:

ISSN: 2830-8034 EISSN: 2830-9510

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غِضابا" (قتيبة، 1983، صفحة 135)
ومن جهة أخرى يتحفّظ على المبالغة في التأويل، فلا يرى عجبا في نطق السماء، والله يُنطق الجلود والأيدي والأرجل يوم القيامة، وجاء هذا التحفُّظ خشية أن ينال المجاز من بعض الاعتقادات المعلومة، مثل عذاب القبر أو مُساءلة الملكين.

بهذا خَصّص المجازَ وحصره في النقل الدلالي الذي تؤسسه المشابهة القائمة على تداخل عالم الإنسان وعالم الحيوان والجماد، واتضح المجال الذي ستتخصص فيه البلاغة فيما بعد. وهكذا وصلت أسئلة التنزيه بعلماء الكلام إلى رصد صور التغير الدلالي وتجريد مفاهيمها وتسميتها وتعريفها وتفسير فاعيلتها (العمري، 1999، الصفحات 150-153)وهذا يتممه قول السكاكي"وإذا ظهر لك أن مرجع البيان هاتان الجهتان، علمت انصباب علم البيان على التعرض للمجاز والكناية، فإن المجاز ينتقل من الملزوم إلى اللازم، كما تقول: رعينا غيثا، والمراد لازمه وهو النبت". (السكاكي، 1987، الصفحات 330-331) .

3- بيان وجه الإعجاز:

بعد ظهور المتشككين واتجاه العلماء نحو الرد عليهم صار البحث في الإعجاز البلاغي ذا منحى قائم بنفسه، يقول الباقلاني "وقد كان يجوز ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن .. أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه، فهو أحق مما صنفوا فيه من بديع الإعراب، وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمسّ والاشتغال به أوجب، وقد قصّر بعضهم في هذه المسألة، حتى أدّى ذلك إلى تحوّل قوم منهم إلى مذهب البراهمة فيها" (الباقلاني، دت، صفحة 6) وإن دعوة الباقلاني هذه إنّما هي نتيجة التسليم بالوجه البلاغي في الإعجاز القرآني، الذي كان محل نقاش طويل في القرنين الثاني والثالث. (العمري، 1999، صفحة 160)وهذا الموقف الذي صار محل إجماع في القرن الرابع يعتبر انتقالا من النقاش الكلامي الذي مجاله الدين إلى النقاش البلاغي الذي يتناول النظم القرآني المجسد في النص. وهذه الفترة مثّلها الخطّابي والرماني والباقلاني.

بعد هذا قام الإعجازيون بإجراءين حاسمين في تطور البلاغة العربية هما:

- اختزال البديع، ومحاولة تفسير الفاعلية البلاغية.
- تفسير الوجوه البلاغية وبيان المزية النظمية.

وقد سُبق هذان الإجراءان بأرضية ممهدة تتمثل في أمرين هما:

- عملُ اللغويين على بيان مجاز القرآن ومُشكِلِهِ وتفسير حكمته.
- تصنيف كتب نقدية بلاغية مثل البديع لابن المعتز، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، والبيان للجاحظ، والصناعتين لأبي هلال العسكري.

فبمجرد أن توجه اهتمام علماء القرن الرابع إلى الإعجاز البلاغي وأخلصوا وجهتهم له توجهت أبصارهم إلى ذلك التراث للاستفادة منه فأفادوا من اللغويين والمفسرين والمتكلمين والأصوليين في مستوى تفسير الوجوه البلاغية واستفادوا من البلاغيين في تفسير الفاعلية البلاغية. (العمري، 1999، الصفحات 166-167) .

4- اختصار أبواب البلاغة:

اختار الرماني عشرة أوجه للإعجاز البلاغي وهي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان وميّز بين مستويين فيها: مستوى معجز ومستوى غير معجز. (محمد خلف الله و محمد، 1976، صفحة 76)

وفي سياق كلامه عن هذه الوجوه كان للرماني عطاء خاص للتفكير البلاغي، فقد حرص على توضيح مفهوم البلاغة، حينما جعل البلاغة هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وهو أمر لم يتطرق إليه أحد بهذه الصورة تحديدا، فرغم أن الجاحظ سَبق إلى الحديث عن معنى البلاغة، غير أن منهجه تمثل في عرض آراء السابقين من ذوي النظر في الأدب دون أن يخلص إلى تصور محدد، أمّا الرماني فقصد إلى ذلك من البداية، وكان مع ذلك أنه أخرج الإفهام من البلاغة، بحجة أن الفهم يحدث للكلام البليغ وما دونه (السيّد، دت، الصفحات 41-42) .

وأيضا مما هو جديد عند الرماني هو ما يظهر في أسلوب معالجته، ومحاولة ضبط الصور البلاغية ضبطا منهجيا كبيرًا، وذلك بتعريفها، ثم بيان ما يراه من أقسام لها، وتوضيح ذلك بالشواهد القرآنية مختطا لنفسه في ذلك طريقا خاصة، فمثلا حين يقول ابن قدامة إن التشبيه "يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها" (قدامة، دت، صفحة 124) ، يذهب الرماني إلى أنه "العقد

على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل" وغير ذلك مما تفرد به. (السيّد، دت، صفحة 48) .

إلى جانب ذلك نقطة أخرى تحسب للرماني وهي أنه أفاض في التشبيه أكثر من غيره، انطلاقا من القرآن، فيقول عن التشبيه البليغ "أنه إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف" (محمد خلف الله و محمد، 1976، صفحة 81)، وذلك يجعله ميزانا يتفاضل به الشعراء .. وقسم للتشبيه أربعة وجوه بيانية يحققها" وفعل مثل ذلك في الاستعارة وغيرها من أبواب البلاغة (محمد خلف الله و محمد، 1976، صفحة 44)؛ وهكذا أفضى البحث الإعجازي عند الرماني إلى توضيح عدد من المصطلحات البلاغية وتعميق مفاهيمها .. ومن جهة أخرى فإن نفرا من الإعجازيين قد سبقوا إلى فكرة النظم المشهورة عن الجرجاني، أو بالأحرى استعملوا مصطلحها في كتب ضاعت ضمن ما ضاع من التراث. وأول هذه الكتب هو كتاب نظم القرآن للجاحظ، ثم كتاب بن أبي داوود السجستاني (ت316 ه) وغيرهما كثير.

ومن دور الإعجازيين إلماح الخطابي إلى أن فكرة النظم تقتضي أن يقوم الكلام على ثلاث عناصر: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، ومعيار البلاغة بهذه المقاييس هو أن توضع كل لفظة في موضعها الأخص بها من الكلام، بحيث إذا تبدل مكانها ترتب عنه أحد أمرين: إما تغير المعنى وفساد الكلام وإما ذهاب الرونق وسقوط البلاغة، وقد أورد الرماني لذلك تطبيقات قرآنية كثيرة. (محمد خلف الله و محمد، 1976، صفحة 44).

5- تفسير فاعلية الصور البلاغية:

برز عند الإعجازيين في القرن الرابع الاهتمام بتفسير فاعلية الصور البلاغية، وقدم الخطابي والرماني تفسيرات بلاغية ينسجم أكثرها مع التفسيرات البنوية الشعرية الحديثة، ومن ذلك تفسير فاعلية علاقة المشابهة في التشبيه والاستعارة وتفسير فاعلية الحذف. ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَو أَنَّ قُرآنًا سُيِّرَت بِهِ الجبَالُ أو قُطِّعَت بِهِ الْأَرضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾[الرعد:31] وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ولو ذكر الجواب لقصر عن الوجه الذي تضمنه البيان. ثم تقوّى هذا التفسير عبر تاريخ البلاغة حتى صار من مسلمات الشعرية الحديثة تحت عنوان انفتاح النص. (العمري، 1999، الصفحات 184-185)، ثم انتقل الأمر إلى السؤال الإعجازي ومدى تعلقه بهوية

البلاغة، ورغم أنه ليس أكيدا ارتباط السؤال الإعجازي وحده بسؤال الهوية البلاغية، إلا أنه مؤكد أن الاعتبار الإعجازي كان أكثر ما يدفع إلى تساؤل يقول: ما الذي يجعل الكلام بليغا ويجعل بعض الكلام أبلغ من بعض؟ وهذا أثّر على توجيه مفهوم البلاغة عند الجرجاني والسكاكي لاحقا. ويمكن القول عموما أن تفسير الصورة قد كان بارزا في المرحلة الإعجازية، في حين سيكون الكشف عن هوية البلاغة من هموم المرحلة الثانية في القرن الخامس، وكلاهما يتغذيان من المرحلة الكلامية الأولى. (العمري، 1999، الصفحات 185-186).

خاتمة:

في مجمل القول فإن بلاغة الإعجازيين هي مباحث قرآنية ذات منهج كلامي وهدف إعجازي، وقد شكلت مع الوقت رافدا للبلاغة العربية يمتاز عن غيره بلون متفرد بسبب سياقه الخاص، وبدأ هذا الرافد في تشكله من مباحث قرآنية تكتفي في البداية بموقف المدافعة والرد على الشبهة وتبرير وجه المجاز، ثم تحوّلت إلى موقف المقارعة وبيان وجه الإعجاز.

وفي خضم جهود "التنزيه والإثبات" انبثق السؤال البلاغي عن هموم غير بلاغية، وخاضت هذه الهموم بالمبحث القرآني في القضايا البلاغية، وبعدها تفرعت وأثمرت تفصيلات علمية، وتدقيقات منهجية، وتنظيرات صريحة، مثلما رأينا مع الرماني في مفهوم البلاغة، وأخرى بلغت سبْق بعض الإعجازيين إلى فكرة النظم، وكانت دراستهم موضوعية عميقة تتجاوز النظرة الكلية ذات الأحكام العامة، فتتناول الأسلوب بالمعنى الواسع، وتهتم باللفظ والجملة والصياغة معا. وقد ساهم الإعجازيون في تقسيم أبواب البلاغة واستخراج أنواع جديدة منها، لهذا يُعتبرون من خَدَمة البلاغة ومؤسسيها الذين سارت جهودهم في الزمن، وكانت أصولا للجهود المتعاقبة بعدهم.

قائمة المصادروالمراجع:

ابن قتيبة. (1983). تأويل مشكل القرآن (المجلد 2). القاهرة، مصر: مكتبة دار التراث.

ابن قدامة. (دت). نقد الشعر (المجلد دط). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

أبو يعقوب السكاكي. (1987). مفتاح العلوم (المجلد 2). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

ISSN: 2830-8034 EISSN: 2830-9510

أحمد مداح. (2011). التنظير البلاغي عند ابن قتيبة من خلال كتابه "تأويل مشكل القرآن" (المجلد دط). وهران، الجزائر: كلية الآداب والفنون.

الباقلاني. (دت). إعجاز القرآن. القاهرة، مصر: دار المعارف.

بيلي برايسون، و اسامة محمد اسبر. (2017). موجز تاريخ كل شيء تقريبًا (الإصدار الثانية). القاهرة: العبيكان للنشر.

حسين عبد القادر. (1998). أثر النحاة في البحث البلاغي (المجلد دط). القاهرة، مصر: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

خلف الله محمد خلف الله، و زغلول سلامة محمد. (1976). ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. القاهرة، مصر: دار المعارف.

شفيع السيّد. (دت). البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم. القاهرة، مصر: دار الفكر العربي.

شوقي ضيف. (1995). البلاغة تطور وتاريخ. القاهرة، مصر: دار المعارف.

محمد العمري. (1999). البلاغة العربية أصولها وامتداداتها (المجلد دط). بيروت، لبنان: أفريقيا الشرق.

ISSN: 2830-8034 EISSN: 2830-9510